

البرامكة والتنکيل بهم:

هم اسرة فارسية من بلخ يرجع نسبهم الى برمك وهو منصب رئيس سدنة معبد النويهار في مدينة بلخ . وعندما قامت الدعوة العباسية انتمى لها خالد بن برمك الذي كان احد الدعاة السبعين في مدينة بلخ ، وامتاز هذا الرجل بمقدرة ادارية ، بانت عليه في بداية الدولة العباسية ، حيث تولى بعض المهام الادارية والمالية ، من خلال توليه لمنصب مسؤول ديوان الخراج فبانت مقدراته الادارية والمالية ، فلفت اليه انتظار الخليفة العباسي الاول ابو العباس وتولى وزارة التنفيذ في عهد الخليفة ابو العباس ، بعد مقتل ابي مسلمه الخلال وعمل مستشار للمنصور بعد توليه الخلافة ، وبانت مقدراته في بناء بغداد اذ تبين له ان كلفة نقل اللبن من ايوان كسرى هي اعلى كلفة من انتاجه في موقع العمل : وفي عهد الخليفة المهدي تولى ولاية فارس سنة ١٦٣ هـ فضبط امورها . وكان من ابرز اولاد خالد، يحيى الذي لا تقل كفاءته عن ابيه فارتبط مع الرشيد وتولى الكتابة له ، قبل توليه الخلافة ، وكان ليحيى بن خالد ولدان هما الفضل وجعفر وقد لعب البرامكة دورا واضحا في دعم الرشيد ووصوله الى الحكم ، ولما بُويع الرشيد بالخلافة حفظ ليحيى فضله فقلده وزارته ومنحه صلاحيات واسعة جدا ، وقال له ((لقد قلدتني امر الرعية ، واخريته من عنقي اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وافضي الامور على ما ترى)) فكانت الدواوين كلها بيده ، وكانت الكتب تصدر من ديوان الخراج باسمه ، ولم تكن تصدر من قبل الا عن الخليفة نفسه . واستطاع يحيى بمساعدة ولديه الفضل وجعفر من ادارة الدولة العباسية مدت سبعة عشر عاما ، وكان الفضل وهو اخو الرشيد بالرضاعة . والذي عهد اليه الرشيد بتربية ابنه الامين وتدریبه كما ولاه الرشيد عددا من الولايات وحقق تقدما ملحوظا في ادارة تلك المناطق ، فاحبه الناس في خراسان عندما اسقط عنهم دفاتر البقايا (الديون) بموافقة مبدئية من الخليفة هارون الرشيد ، وكانت هذه المبالغ التي تتضمنها

دفاتر البقايا ، تلقى السكان وتقضي مصالحهم ، كما حفر الترع والقنوات وبنى المساجد والزوايا ، فحسنت سيرته في أهل خراسان . أما جعفر فقد اختص بمنادمة الرشيد ، فكان لا يفارقها في ليل أو نهار أو سفر أو إقامه أو حرب ، أو سلم ، وقد خاف والده بما ستؤول إليه نتيجة هذه العلاقة الوثيقة جداً مع الرشيد.

كما تولى محمد بن خالد حجابة الرشيد . أما موسى بن خالد فقد تولى بلاد الشام و كما اشتراك جعفر مع الخليفة الرشيد في النظر في المظالم . وقلده الأشرف على دور الضرب و كما أمر بكتابة اسم جعفر على الدرام والمداني ، وقلده المغرب وشمال إفريقيا ، وتشير هذه المكانة التي وصل إليها البرامكة عن النفوذ الذي بلغوه فضلاً عن أن الكثير من الموظفين الإداريين في مختلف وظائف الدولة ، كانوا من صنائعهم بحيث إن الرشيد بعد عزلهم كان يجد صعوبة بالغة في العثور على أي موظف ، لكي يعينه في أي منصب ، في就得 من اعون البرامكة.

عزل البرامكة:

بعد هذه المكانة التي وصلها البرامكة ، في إدارة الدولة العباسية وتتفذهم الكبير هم واعوانهم ، ومكانتهم عند الخيزران والتي كانت بمثابة السد لهم الذي يقيهم كل مكروه ، فقد كان يحيى لا يصدر إلا عن أمر الخيزران في حياة المهدي والرشيد ، وعندما توفيت الخيزران ذهب الدعم الذي كانت تقدمه .

وهنا لابد أن ندرك أن سلطة البرامكة المطلقة لم تستمر أكثر من أربع سنين ذلك أن وفاة الخيزران سنة ١٧٣هـ كانت بداية لنهاية نفوذهم الذي بدأ يتقلص بصورة تدريجية رغم أنها بطيئة . لأن الخيزران كانت السند المهم ل Yoshiyuki البرمكي . فحسب بل لأن موتها أضفى الجو ل Yoshiyuki البرمكي وأولاده لكي يتصرفوا في الأمور وحدهم أكثر من ذي قبل . الأمر الذي جعل الخليفة يشعر أكثر من أي وقت مضى بثقل نفوذهم وتماديهم . ولكن الرشيد تخلص منهم سنة ١٨٧هـ .

وقد حار المؤرخين في سبب سقوطهم فاختلت الروايات الموضوعة بالروايات الشعبية وحبكت القصص والأساطير وتدخلت بالواقع التاريخية الحقيقة حتى بات من الصعب التفريق بينهما . ولعلنا ننفي منذ البداية (أسطورة العباسة) اخت الرشيد

وقصة زواجهما الصوري من جعفر البرمكي لأنها رواية لاتتفق امام النقد الداخلي لمتن الرواية ولا امام النقد الخارجي فالرواية يرويها الطبرى دون سند او سلسلة رواة. وليس لها ذكر في كتب الدينوري واليعقوبي والاصفهانى وهم من اوائل من كتب في احداث العراق في هذه المدة.

ويناقش ابن خلدون هذه القصة وينفيها اصلا ولا يعقل ان تقدم العباسة على ذلك وعصرها قريب عهد ببداوة العربوبة وسذاجة الدين فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب منها ؟ وانكر العديد من المؤرخين هذه الاسطورة التي وضعتها الاقلام الفارسية الحاقدة وخاصة وان متها يغلب عليه الطابع الاسطوري المختلق .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فالعباسية كانت متزوجة من محمد بن سليمان وتوفي عنها ثم تزوجت ثانية وثالثة فلم تبق دون زوج حتى ان الشاعر ابا نؤاس اخذ يتتدر في شعره بأمرها ويقول اذا اراد رجل الموت فما عليه الا الزواج من العباسية . وكانت القيم والتقاليد قوية وفعالة في عصر الرشيد فان هذا الخليفة جعل ابنه الامين وهو من ام عربية ولها اولا للعهد فكيف يوافق على زواج اخته من مولى اعمجي ؟ وكيف يتم الزواج وال الخليفة لا علم له . واذا كان الزواج صوريا فكيف يوافق عليه الخليفة مع انه ينافي الشريعة الاسلامية التي لا تقرر زواجا بالصورة التي توردها الرواية .

ومن الروايات تلك تدعى ان سبب سقوطهم هو ميلهم الى العلوبيين وهذه روايات ضعيفة موضوعة وليس لها ما يبررها كما ان البرامكة يظهرون في روايات اخرى وكأنهم اعداء للعلويين على اننا لا نعتقد بان البرامكة كانوا موالين سياسيا للقضية العلوية وربما اظهروا في مناسبة او اكثر تعاطفهم مع بعض العلوبيين او سمحوا في مجالسهم بمناقشة الافكار والآراء العلوية كما كانت تناقش اراء عديدة اخرى وليس لدينا روايات موثوقة تدل على اخلاصهم للقضية العلوية او ولائهم لشخصية سياسية علوية . وهنالك عدة عوامل ادت الى سقوط البرامكة منها :

١ . سطوتهم السياسية ونفوذهم الاداري : فالواقع تثبت ان سقوط البرامكة لم يكن وليد انفعال مفاجئ من قبل الخليفة بل كان تدابيرها مخططا له ولدته احداث تراكمت على بعضها لعل ابرزها نفوذهم الكبير في البلاد والادارة والمجتمع فكان جعفر

البرمكي يتصرف وكأنه الخليفة . واصبحت لحيى البرمكي الوزارتان وهم ادارة الدواوين والخاتم . وكان الفضل يسمى الوزير الصغير لأنه كان اداريا متوفدا وكان يحيى يرى بان الفضل سيخلفه في المسؤولية .

ان هذه السلطة اثارت شكوك الرشيد واذكت فيه تجاربه المريضة فحز ذلك في نفسه وشعر بان كرامته قد اهينت وهو شيء كما يقول ابن الطقطقي ((لا تحتمله نفوس الملوك)) وقد عبر الجهشياري عن موقف الرشيد قائلا بان الرشيد ندد ببيحيى البرمكي متهمها اياه (استبد بالأمور دوني وامضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتني) .

٢ . السبب الثاني : هو جمعهم للثروة والاموال بين ايديهم وهذا ما يبرر كثرة عطاياهم وسخاءهم الكبير الذي فاق عطايا الرشيد رغم ما نعرف عنه من الكرم ويظهر من بعض الروايات انهم حجزوا عنه الاموال ولذلك اتهمهم بأنهم ((نهبوا مالي وذهبوا بخزائني)) وان الرشيد لم يمر بقصر او ضياعه او بستان ، وسل عنه الا وقيل له هو للبرامكة .

٣ . اما السبب الآخر فهو حبهم للنقاش والجدال في امور السياسة والعقيدة والكلام ويظهر ان مجالسهم كانت حافلة بالكتاب والادباء والمفكرين والشعراء واصحاب العقائد والمذاهب المختلفة وكانوا لا يترجون في نقاش مسائل عديدة سياسية ومذهبية ، وتشير روايات تاريخية ان جعفر البرمكي كان يسمح للعلويين في حضرته لمناقشة مسائل تتعلق بالنص والاختيار والا حقه في الخلافة وربما كان ذلك سبب في اتهمهم بالتشيع للعلويين او للمعتزلة او جعلهم من انصار الزندقة او المجوسية والمعروف ان موقف البرامكة هذا على عكس موقف الرشيد الذي كان يترجح في النقاش والجدال في الدين خاصة ولعل موقف الرشيد الذي كان له ما يبرره يعود الى سبب ديني ذلك لأنه يعتقد ان الجدال يؤدي الى الخلط والتشويه وخاصة على العامة من الناس كما انه يسمح لمذاهب هدامه معادية بالانتشار ويعود كذلك الى سبب سياسي لأنه يعتبره خطرا على سلامه وامن الدولة لأنه يؤدي الى استفحال التيارات السياسية المعادية ثم ضعف عوامل التماسک وغلبة عوامل الانقسام .

٤٠ اما العامل البارز الاخير في سقوط البرامكة فيعود الى تكتلات ضد كتلة البرامكة ولها ابرز من يمثل الكتلة المعادية لهم هو الفضل بن يونس حاجب الخليفة الذي سعى بهم وواغر قلب الرشيد عليهم . كما ان علي بن عيسى اتهم موسى بن يحيى البرمكي بمحاولة التآمر على الدولة في خراسان . وتكلم محمد بن الليث ضدتهم وذكر الرشيد بمسؤولياته تجاه الامة وكانت البرامكة تكره ابن الليث هذا ((لان فيه ميلا على العجم)) كما ان البرامكة كانت منحرفة عن القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني ولم تكن علاقة زبيدة ام الامين وديه مع البرامكة وكانت تشکوهم باستمرار الى الخليفة الرشيد هذا اضافة الى علاقة الفضل البرمكي بالخليفة ساءت بعد ان نكث الرشيد بعده ليحيى بن عبد الله العلوى الذي استسلم للفضل البرمكي بعد ان اقنعه هذا الاخير بالغفو والامان . ولا ننسى كره بعض الهاشمين لهم كما ان ابن خلدون يقول ان بني قحطبه وهم عرب يمانية كانوا اعداء للبرامكة . ولعل هذه الروايات تشير الى ان للبرامكة ميل الى العجم وانهم حاولوا ادخال مظاهر الحضارة والقيم الفارسية الى المجتمع العربي الاسلامي الامر الذي انكرته وحاربته جماعات اخرى في البلاط والمجتمع .

واغلب الظن ان هذه العوامل الأربعه قررت مصير البرامكة وبعد ان رجع الرشيد من الحج سنة ١٨٧هـ ووصل الى الانبار اوى الى فراشه مبكر ثم دعا مسور الخادم وامرها بضرب عنق جعفر وسجن بقية افراد اسرة البرامكة وصادر اموالهم وكتب الى جميع الولاة والاقاليم بالقبض على انصارهم وحذر الناس من ايواهم والتعامل مع اعوانهم . وهذا يدل على ان الخطوة كانت مبيته ضدهم . ولم تكن مفاجئة.

لقد صورت الشعوبية سقوط البرامكة وكأنها مذبحه مأساوية والواقع ان الرشيد لم يقتل منهم الا جعفر اما يحيى والفضل فقد امر بحبسهما وقد توفي الاول سنة ١٩٣هـ والثاني ١٩٠هـ.

ولعل سقوط البرامكة بالسهولة هذه تدل على مدى قوة الخليفة العباسي ومدى وهن الآراء المبالغة التي تبرز دور الفرس في الحياة السياسية والادارية للدولة والخطأ

الكبير الذي وقع به المؤرخون الذين ادعوا بان الدولة العباسية قسمة بين العرب والفرس . فقد كان العرب ولما يزالوا في عهد الرشيد اصحاب اليد الطولى في الامر .

المصادر والمراجع

- ١-ابن الاثير ، الكامل في التاريخ
- ٢-ابن كثير ، البداية والنهاية
- ٣-الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك
- ٤-ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك
- ٥-ابن خلكان ، وفيات الاعيان
- ٦-اليعقوبي ن تاريخ اليعقوبي
- ٧-ابن خياط ، تاريخ خليفه بن خياط
- ٨-ابن قتيبة ، عيون الاخبار
- ٩-ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر
- ١٠-ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى
- ١١- حاجي خليفه، كشف الظنون في معرفة الاسامي والفنون
- ١٢-الذهبي ، تاريخ الاسلام
- ١٣-السيوطى ، تاريخ الخلفاء
- ٤-المسعودي ، مروج الذهبى
- ٥-المقريزى ، كتاب السلوك
- ٦-القلقشندى، صبح الاعشى
- ٧-ولهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها
- ٨-ادم متر ، الحضارة الاسلامية
- ٩-شاكر مصطفى التاريخ العباسي
- ٢٠-فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية
- ٢١-بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية

٢٢-بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية

٢٣-حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام

٤ - البغدادي ، تاريخ بغداد

٥-عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الاول